



بصمات في تاريخ الكويت

يوم برغبه على يدي



الشهيد محمد جاسم الرميضين

تخليد وعناية

يوم غير عادي

عن قصة الشهيد^(*)

محمد جاسم الرميضين

بقلم

أ. د. سعاد العبد الوهاب

(*) تحت الاستعانة ببحوثات الشهيد من كتاب د. نجاة عبدالقادر الجاسم، شهداء الكويت: بطولاتهم وتضحياتهم، الجزء الثاني، ص ١١ - ٢٦.

فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813	عبدالوهاب ، سعاد . يوم غير عادي : الشهيد محمد جاسم الرميضين / سعاد عبدالوهاب. - ط2. - الكويت: مكتب الشهيد، 2013 28 ص ؛ 21 سم. - (بصمات في تاريخ الكويت) ردمك : 4 - 38 - 84 - 99906 - 978 1 - القصة العربية - الكويت. 2 - الشهيد محمد جاسم الرميضين. أ- العنوان. ب- السلسلة
ردمك : 4 - 38 - 84 - 99906 - 978	
رقم الايداع : 2011 / 063	

«إهداء»

إلى أرضي الصغيرة ...

إلى حبي الكبير ...

إلى من يستحق التضحية والعطاء ...

«إلى الكويت»

مكتب الشهيد

بصمات في تاريخ الكويت

إن كانت المعاناة والآلام بما يصاحبها من آمال وكبرياء تتفتح أدباً وشعراً وفضاً، فذلك هو حال الحركة الأدبية والثقافية في دولة الكويت التي انتصرت وجدانياً وأدبياً للتطورات السياسية والإجتماعية والإنسانية التي عاشها العالم العربي منذ منتصف القرن الماضي، مروراً بأشهر الاحتلال الصدامي لبلدنا الحبيب الكويت.

سجلت الحركة الأدبية والثقافية في بلدنا ظهور أعداد كبيرة من العمالقة الرواد والمبدعين الكويتيين الذين تركوا بصمات واضحة في مسيرة العلم والثقافة والفكر والفن والأدب، وأجادوا فن الكتابة والتعبير شعراً ونثراً.

في مجموعتنا « **بصمات في تاريخ الكويت** » أراد مكتب الشهيد أن يسجل للتاريخ فورة غضب الكويتيين على المحتل، وإرادة النصر على الغاصب مهما كانت عدته وعديده، والرغبة في الشهادة فداءً للأرض والعرض. فعندما تحقق النصر وطُرد الغزاة حكمت اليراعات الكويتية قصص بطولات، ووثقت معارك شرف وملاحم شرسة، خاضها ضد المحتل، شبان وشابات بصدور عامرة بعشق الكويت وبقلوب مؤمنة بنصر الله.

« **بصمات في تاريخ الكويت** » تضم باقة من أدب النصر على الاحتلال، وصفحات من الكفاح لتحرير الأرض. وهي هديتنا لأبنائنا وإخواننا من هذا الجيل ومن الأجيال القادمة في بلدنا الكويت، وفي كل مكان من هذا العالم، نبراساً لتصدي الحق وانتصاره على الباطل، وشاهداً على حب الوطن وتقديسه، ووفاءً لمن ضحوا بأرواحهم فداءً للكويت.

الوكيل المساعد
المدير العام لمكتب الشهيد
فاطمة أحمد الأمير

يختار شهر مارس أرض الكويت ليقيم عليها مهرجانه السنوي الذي يمتزج فيه الأخضر بجميع ألوان البهجة، وتتسلل فيه رائحة النعناع المنعشة عبر مزيج من روائح زهر الليمون والسدر وطلع النخيل..

كان المقدم ركن محمد جاسم الرميضين يستعرض قوة تأمين القاعدة البحرية بينما كانت شمس النهار الطالعة مبكراً بدأت مهمتها في تصعيد قطرات الندى محملة بمزيج الروائح النادرة، ولعله رأى انعكاس هذا المشهد الجمالي على وجوه هذه الثلة من قوة الحراسة المختصة بمبنى قيادة القاعدة، ولعله أراد، ورأى من واجبه، أن ينبّه إلى وجوب الصرامة على وجوه الجنود، بل لعله فكر أن يوبخهم على هذه الحالة من الرضا والطمأنينة التي تكسو ملامحهم، وتكتمل بثيابهم العسكرية البيضاء، وياقاتهم الكحلية المطرزة الأنيقة، ولكنه تراجع حين تذكر آخر آية قرآنية قرأها في مصحفه المستقر دائماً على مكتبه، يستمد منه غذاءه العقلي والروحي كلما وجد فرصة سكون بين مراحل عمل لا يتوقف: «بلدة طيبة ورب غفور».. همس لنفسه: الحمد لله..

قبل أن يستدير منصرفاً وجد سكرتير مكتبه يُقبل نحوه بالخطوة السريعة، ليتوقف أمامه مباشرة، يؤدي التحية، ثم يقول، وكأنه يقرأ من ورقة..

- سيدي المقدم.. رئيس الأركان يريد محادثتك على الهاتف.

لم يخل الطلب من غرابة، لماذا لم يطلبه على اللاسلكي؟
ولكنه فكر بسرعة: لا شك أن في الأمر ما يستدعي.

اتجه إلى مكتبه القريب بخطوات نشطة، متزنة، فوجد
الخط انقطع. وهنا عاد يسأل الجندي: هل من طلبني هو
مكتب رئيس الأركان؟

كان السكرتير يقف بعيداً قرب باب المكتب، فلما رأى أن
قائه يوجه إليه الحديث تقدم خطوة، وأدى تحية مختصرة،
وقال بحرص على الكلمات:

- لا يا سيدي المقدم.. المتحدث ليس مكتب رئيس الأركان.
إنه رئيس الأركان نفسه!!

قال في نفسه: خير إن شاء الله. ثم للسكرتير:
انصراف..

وهنا أخرج حافظة نقوده وتطلع إلى صورة زوجته التي
يخفيها بين طياتها، وسحب من وراء الصورة ورقة صغيرة، قرأ
فيها رقماً طلبه معكوساً (من اليمين إلى اليسار) فلم تمض
لحظة حتى دق جرس واحد، وكان رئيس الأركان هو المتحدث،
وكان من الواضح ميله إلى اختصار الكلام:

- أنا يا محمد

- أمرك سيدي رئيس الأركان.

- عندنا ضيوف.. ليسوا معي الآن..

- نعم.. الوفد العراقي؟!

- كما تعرف. أنت نفسك ساهمت في هذا.. أوصلنا إليهم معدات وأسلحة وأجهزة وذخائر فوق ما نستطيع..

- هل طلبوا شيئاً؟

- نعم.. طلبوا شيئاً لا أرغب في تقديمه لهم، وهذا ما جعلني أطلبك على هذا الخط الخاص حتي لا يسمعون أحد..

- سيدي.. ليس من حقي أن أعرف ماذا طلبوا، ولكن.. ما هو المطلوب مني؟

- مطلوب منك أن يقضوا في ضيافتك وقتاً طيباً.. دون أي شيء آخر.. (بعد فترة صمت) مفهوم يا سيادة المقدم؟

فكر المقدم ركن محمد جاسم الرميضين فيما تعنيه كلمات رئيسه، وأدرك مغزاها على التقريب، ولعل عودة الصمت أشعرت رئيس الأركان بأن المطلوب غير واضح، أو غير محدد بالدرجة المطلوبة، وأن أي تجاوز في هذا الموضوع قد يتحول إلى أزمة.. هو مالا يريده، ولو كاحتمال من بعيد.

هنا ضحك رئيس الأركان ضحكة خفيفة، قال مداعباً المقدم: إذا كنت أنت مقدم ركن في البحرية، فأم عيالك مقدم ركن في فنون الطبخ..

قال محمد متقبلاً المداعبة: شكراً على الثقة سيدي رئيس الأركان. ولكن بقي سؤال.

- أسأل..

- هل سنستقبل الوفد في القاعدة عندنا أم أحضر لمبنى رئاسة الأركان وأخذهم؟

- بل يصلون إليك في القاعدة.. سيكون هذا بعد نصف ساعة.. وعليك تدبير الباقي..

- مفهوم سيدي.

ومع ترجيح رئيس الأركان أن المقدم أصبح يدرك حدود المطلوب بدقة، أو بما هو قريب من الدقة، أراد أن يطلع على سبب خفي، ليكون أكثر اقتناعاً بما هو مقبل عليه..

- الجماعة طلبوا صراحة زيارة القاعدة الشمالية في بوبيان، وأنا صراحة لا أرغب في هذا..

قال المقدم: بالطبع سيدي..

- تخلصت من الطلب بأن قلت إن القاعدة تجري بها أعمال صيانة، وليست جاهزة لاستقبال وفود..

- من المؤكد أن هذا ضايقهم..

- مؤكد، ولكي لا يصل الضيق إلى الإحراج.. اقترحت عليهم زيارة القاعدة الجنوبية في الجليلة.. عندك.

هنا انفرج الهمّ في صدر المقدم، وشعر بأهمية الدور الذي يغطي به على عمل من الخطر أن يكون، فقال مطمئناً قائدة:

- لتكن مطمئناً أن جميع الاعتبارات معمول حسابها بدقة.

قال القائد:

- أنا متأكد..

- ٢ -

بدا وجهه رئيس الوفد الضيف غريباً، وغير مريح، ولكن العسكرية ليس فيها خواطر ولا أمزجة شخصية، ولا مشاعر وعواطف.. كان طويلاً أقرب إلى النحول، أسمر أقرب إلى السواد، في وجهه آثار جدري غائرة زادت النحافة وضوحاً، وكان شعره الذي كان حريصاً على إظهاره بوضع الكاب تحت إبطه - ناعماً مسترسلاً بنّي اللّون، كأنه من أصل هندي، بينما كانت عيناه زرقاوين تمازجهما صفرة وكأنهما من مياه البحر عند شاطئ كدر لا يكف عن إثارة الرمال والأعشاب.. وكان بدرجة عقيد..

استقبله عند باب قيادة القاعدة ورفع يده بالتحية العسكرية، محتفظاً بمسافة، ثم مد يده مصاحفاً، ولكن الآخر رد برفع يده بالتحية، ثم تقدم معانقاً للمقدم، وقد ألقى الأصول العسكرية في لحظة خاطفة، وهو يقول:

- يا أخي ما علينا .. نحن أهل ولا تفرقنا مثل هذه
الشكليات ..

شعر المقدم بقليل من الحرج، فقد تعود أن تكون للزي
الرسمي حقوقه كاملة، فليس لديه اعتراض على معانقة
ضيفه، ولكنه ضيف رسمي، في القاعدة، اصطف لتحيته
فصيل كامل من الجنود ضربت له «سلام سلاح»، استطاع
المقدم أن يتخلص بسرعة من المشاعر السلبية التي تولدت
عنده بسبب العناق الذي كان يمكن أن يترث ولو قليلاً بعد
التعارف وتبادل الأحاديث، تقدم ضيفه إلى الصالون الملحق
بمكتبه، وبدأت مشروبات من كل نوع، وجاءت هات من كل لون ..
فقد كان اليوم الربيعي مبهجاً في تحركه بين البرودة والدفء،
وبين الصحو والغيم، وبين روائح البحر ونسائم حديقة المكتب
المتدة إلى مدخل مبنى قيادة القاعدة.

ركب المقدم الركن الكويتي والعقيد العراقي سيارة الجيب
البيضاء المكشوفة، وانطلقت بهما تجتاز جهات القاعدة
البحرية، تسبقهما سيارة تطلق صفارتها المتقطعة لتعلن
عن الموكب، وتتبعهما سيارة أخرى بقصد الحراسة، وكانت
طرقات القاعدة ومرابض المدفعية غاية في النظافة، حتى
قطع السلاح التي تختفي عادة خلف أكياس الرمل كانت في
هذه القاعدة تختفي في أدغال من شجيرات الياسمين التي
استتبقت بين كتل من الصخر والجنديل. توقع المقدم الركن أن
يكون للزائر الضيف تعليق على طريقة التمويه حول الأسلحة،

ولكن يبدو أنه كان مشغولاً بأمر آخر عكسته عيناه التي تحولت للحظة من الأزرق الكدر إلى الأحمر الرمادي مثل فوهة بركان خامد .

قال المقدم مداعباً ضيفه ليفتح الحديث ويكسر الصمت:

- كما ترى.. السلاح بين الزهور.. والحمد لله يدنا على هذا وذاك..

قال العقيد بخشونة غير منتظرة:

- أخشى أن يؤثر أريج الياسمين على أنوف الجنود فلا يقدرُوا على شم روائح البارود. إذا لزم الأمر..

- نحن لا نأخذ بهذه النظرية العتيقة.. بعض الجيوش تنشئ الجندي على الإهانة والتحقير وتعتبر هذا من الخشونة الواجبة. نحن نعامل أبناءنا بطريقة مختلفة.

- فلسفة!!

صدمته الكلمة، فأراد أن يتأكد من الملامح المصاحبة لإقحام هذه الكلمة، إذ تطلع إلى الجالس بجانبه فلاحظ أن أصابع يده تهتز بقليل من الحركة المتشنجة وكأنه يعد عليها أشياء يخشى أن ينساها..

كانت طائفة حوامة تعبر على سيف الخليج بموازاة القاعدة، فقال العقيد وكأنما يلقي سؤالاً غير مقصود:

- عندكم حوامات جيدة، وطبعاً عندكم مهبط
للمقاتلات..

أجاب المقدم على الفور:

- الطيران له قيادته، وصلاحياتي تقف عندما تشاهده
سيادتكم.

حاول أن يكون صوته مداعباً دون أن يتمكن من بسط
ملامحه المتراكمة:

- أردت فقط أن نستفيد من خبرتكم..

قال مجاملاً:

- وهل تقاس خبرتنا المحدودة بخبرة جيشكم الذي حارب
ثمانية أعوام دون توقف.

استمر الآخر..

- أنتم أيضاً قاتلتم معنا بوسائل أخرى، وهذا موقف لا
ننساه..

- هذا واجب..

وانتهى الطواف بجهات القاعدة

وعندما هبط المساء كانت فيلا المقدم في حيّ هدية
قد أعدت حديقته الصغيرة الجميلة لاستقبال الضيف في
ملابسه المدنية بعد أن استقبلته القادة في زيّه الرسمي.

كان في رفقته السفير وسكرتير أول السفارة والقنصل ومساعدته .. وكان المقدم سعيداً بحضور هذه الشخصيات المهمة إلى بيته، وبالفرصة التي يستطيع فيها أن يكون على سجيته دون تخوّف أو قلق على أسرار عمله العسكري.. وهكذا استقبل ضيوفه على الباب الخارجي بحفاوة، وكان إلى جانبه ولده الطفل يشارك في التحية، وكان بقية أطفاله مصطفىين من تلقاء أنفسهم على سلم المدخل فلما رأوا إقبال الضيوف هرولوا في اتجاههم..

هكذا كان لقاء المساء قادراً على محو الجفاف الذي فرض نفسه على لقاء الظهيرة .. كما كانت مائدة العشاء المعدة جيداً إضافة أخرى على بند الحفاوة..

وكان العقيد لا يداري دهشته أمام مظاهر ما بدا له أنه ترف وثراء متجاوز، حتى أن سفيره لفت نظره إلى خطورة ما تعلنه عيناه من العجب.. وعندما صاحبه إلى مكان غسل الأيدي همس إليه:

- خفّض عينيك قليلاً .. صفحتك مكشوفة.

قال العقيد بفحيح: عندهم أطباق فضائية ليشاهدوا العالم، وقاعة الطعام ليس لها شبيهه ولا في القصر الكبير .. والحديقة .. حتى الأطفال .. انظر طريقة حلاقة شعرهم!!

أدار السفير الماء في فمه، ثم مجّه في الحوض ووضع المنشفة على فمه وهو يهمس:

أراك سيدي العقيد قد خرجت بملاحظات دقيقة ومهمة..

ثم أضاف وهو يعيد المنشفة إلى مكانها:

- ومع ذلك أنت لم تر إلا القليل:..

عندما انتهت مراسم العشاء أبدى الضيف رغبة في شكر سيدة الدار، وكانت هي تضع هذا في حسيانها، فكانت تخلصت من روائح الطبخ ومجهود الإشراف على الخدم، وارتدت ثوباً وطنياً منقوشاً وتعطرت بالعود، وامسكت بيد كبرى بناتها لتعلن شعور الأمومة في حركتها، فحين أطل زوجها سارت صامته إلى جانبه، إلى أن اقتربت فسبقت بإعلان الترحيب، وامتدح الأكلون جميعاً جودة طعامها، وذوقها في إعداد بيتها..

تبادلوا عدداً من عبارات المجاملة، تردّد فيها اسم بغداد، وهنا قالت الطفلة: أنا أحب سندباد من بغداد.

قال العقيد: هل تحبين أن تأتي إليه؟

قالت الطفلة: لا، أحب أن أشاهده في التلفزيون..

قال العقيد: ولكن السنديباد يحبك، ويحب أن يراك في

الكويت..

قال المقدم دون تفحص للمرامي:

- أهلاً.. وسهلاً..

قال المقدم والنوم يغالبه فلم يستوعب الصوت المنزعج
المفاجئ:

- من أنت بالضبط..
- أنا إبراهيم .. يا حضرة المقدم.
- أي إبراهيم؟
- إبراهيم عبد النبي المشعل..
- خلاص يا إبراهيم وافقت على استتقالتك من القاعدة
حسب رغبتك.. أنت أدري بمصلحتك
- هذا أمر آخر
- مسألة التحاqqك بإدارة خفر السواحل، كما أفهمتك ..
أنت حر فيها ..
- قال إبراهيم بمزيد من الفحيح حتى لا يسمعه أحد ممن
حوله:
- لم أعد حراً سيدي المقدم .. هناك قوات .. حشد بلا
نهاية .. يخترق الحدود .. دار رأسه كما تدور شاشة الرادار
.. تصادمت الاحتمالات، سأل:

- من الشمال..

- هم

وسكت الكلام. هل وضع السماعة؟ ولماذا؟ هل سحبت الخطوط؟ ومن سحبها؟ لا مجال للأسئلة.. ولكن لا بد من تحديد مجال الحركة. لا يليق به أن يخرج إلى الشارع ليسأل فيأخذ معلومات من العابرين. ثم.. من سيعبر الشارع الآن وقد تجاوز الليل منتصفه؟ دق جرس الباب الخارجي، تقدم (بالترينج سوت) الذي يفضل في النوم انقاء انكشاف جسده لتبريد جهاز التكييف. تردد لحظة، استجمع قبضته وفتح..

- خالد.. لم أتوقعك..

- ولا أنا توقعت أن أطرق بابك في مثل هذه الظروف..
طبعاً عندك تفاصيل..

- أبداً، لم أذهب إلى القاعدة اليوم، ولم يبلغني أحد بشيء..

- الأخبار تسري بين الناس. والإذاعة على إرسالها المعهود تغني للمجد العربي، والتلفزيون يعرض فيلم أنت اللي قتلت بابايا.

قال وقد تنبه إلى أن صديقه لا يزال يقف أمام الباب:

- تفضل، على الأقل نفكر ولو بضع دقائق ماذا يجب أن نفعل..

- قصدتك لأسألك نفس السؤال.. وفيما يخصني ماذا علي أن أفعل؟

قال المقدم:

- اسمع ياباش مهندس.. ماذا علينا أن نفعل، يتحدد بالضبط حين نعرف ماذا حدث، بالضبط أيضاً.

- ومن الذي يعرفنا؟

- بالنسبة لي كضابط.. قيادتي هي التي تحدد لي.. وقائدي هو الذي يصدر لي الأوامر.. وفي حالتك..

- حالتني..

- اتصل بوزيرك..

- من يعرف أين يكون وزير المواصلات قرب الفجر؟!

قال المقدم بحسم:

- لا بد أن نتحرك فوراً، إبراهيم المشعل اتصل بي منذ دقائق، وأنت هنا، وفي استطاعتنا أن نتبادل المعلومات ونتصل بقيادتنا، ونستمع إلى الإذاعة، نظر إلى خالد، وأجلسه على القنفة على يسار الباب، واستأذنه في أن يغيب بضع دقائق.

صعد المقدم ركن محمد جاسم الرميضين إلى الطابق العلوي في الفيلا الصغيرة، حيث تنام زوجته المثقلة بحملها في الشهر التاسع، وحيث يستقل ولده العود حمد بغرفة ليتمكن من المذاكرة واللعب بهواياته الإلكترونية، وتستقل ابنته

الكبيرة لطيفة بغرفة أخرى ومن حولها كتبها الملونة، وعرائس «باربي» بغرفة نومها، ومطبخها، وحمامها، وصديقاتها.. تسلل إلى غرف أولاده الأطفال، وقف متردداً في التقدم ليقبلهم بقبلة قد تكون الأخيرة في حياته، وخشية أن يثير فزعهم. أشار إليهم وهو على الباب وهو يدعو الله ألا يكون اللقاء الأخير، عندما هم بدخول غرفة نومه فوجئ بزوجته تحاول النهوض مستتدة إلى ذراعيها، وبطنها المتكور يفرض عليها طريقة في الحركة. قال برقة شديدة:

- ماذا تريدين؟

- اشرب.. ماء نصف بارد

- لماذا لم تنادينني؟

- لم أرد إزعاجك.. ثلاثة أيام متصلة في القاعدة لم ترجع لبيتك.. قلت اتركك تتسلى بالتلفزيون أو قراءة الصحف في هدوء الليل.

ردد وراءها:

- نعم.. هدوء الليل..

تبهت لما في صوته من جرعة حنان زائدة، إنها لم تر منه غير الحب والحنان والشفقة وكل ما تطلب الزوجة المخلصة من رعاية زوجها المحبوب .. الحنان ليس مستغرباً من محمد .. أو أبو حمد كما تحب أن تدعوه، ولكن وراء نغمة الصوت شيء ما زائد أو ناقص أو غريب ..

- خير يا بو حمد ..

- خير إنشاء الله

كان قد أحضر الماء البارد، ومزجه بالماء العادي وقدمه إليها ..

- اشربي أم حمد ..

- أنت سمعت خبيراً غير طيب، وجهك ما يعرف الكذب ..

- للآن .. سمعت كلام .. يجب أن أتوجه للقيادة ..

- هل تلقيت أمراً؟

- لا، ولكن .. إذا كان مالا نتوقعه، لا يجوز انتظار أوامر .. لكن لا تنزعجي، ولا تنبهي عيالي، دعيهم في أحلامهم .. (بعد صمت قصير) تعرفين المهندس خالد دشتي؟

قالت مستغربة السؤال:

- ولو .. زوج أعز صديقاتي، ومن أسبوع واحد جاءنا بنسخة فاخرة من دليل الهاتف الجديد .

- تحت،

قبل أن تظهر الدهشة على وجهها كان يكمل:

- يتحدث عن حشود عراقية لا يعرف أحد بالضبط
موقعها.. هل هي خارج الحدود أم تخطتها..

هنا ظهر فزع حقيقي..

جلس إلى جوارها على حافة السرير، وضع ذراعه على
كتفها، أخذ كوب الماء الفارغ من يدها، ربت عليها بحنان:

- آمنة بالله يا أم حمد، ما تدري نفس ماذا تكسب غداً،
وما تدري نفس بأي أرض تموت..

سالت دمعها في صمت حين سمعت كلمة الموت، وكأنها
تطرق أذنها لأول مرة، أمسكت بكفه، وراحت تقبلها وهي
تحبس نשיجا يثور في صدرها حتى تحقق رغبة زوجها في
أن يظل الأطفال مستغرقين في نومهم.

خُصَّ يده، نهض، اتجه نحو الخزانة، ارتدى زيه البحري
... عاد يواجهها وقد اتمت محاولة الوقوف، تحاول أن تساعده
في استكمال هيئته فلا ينسى شيئاً.. أضافت المناديل، ومفكرة
التليفونات، وحافظة النقود، وحافظة صور الأولاد، بينما كان
هو مشغولاً بتأمين مسدسه وتعليقه بمكانه في الحزام، ودس
خزانات رصاص إضافية في جيوبه..

راقبت خطواته وهو ينزل السلم في خطوات بطيئة، حتى إذا اختفى في الممر اتجهت إلى النافذة المطلة على الحديقة الصغيرة، كان يمشي إلى جوار صديقه المهندس خالد دشتي .. نظرت إلى السماء تهتف في صمت بدعاء السلامة، للوطن، ولهما، في لحظة خاطفة، وزوجها يغلق الباب الحديدي المطل على الشارع استعداد خيالها الحركة ذاتها عندما كان في وداع ضيفه الضابط الكبير وأعضاء السفارة.. هل هذه عاقبة ترحيب القلوب وفتح البيوت؟ هل يعود سنمار ليلقي جزاء ما أحسن من صنع؟ استعدادت عبارة قالها الضابط الضيف عن عودة سندباد إلى الكويت. هل كان يقصد، يومئ ولا يصرِّح؟! ولكن الذي جاء ليس سندباد، إنه لص بغداد، بل سفاح بغداد!!

استعادت بالله من الشيطان الرجيم، استعادت ذهنها الشارد، حاولت أن تنفذ بعينها عبر أعواد السور الحديدي لعلها تلمح حبيب القلب، أبو العيال، قبل أن ينطلق، فلم تلمح غير الأضواء الحمراء الخلفية للسيارة وهي تغيب في المنعطف.

هتف قلبها بحنان شديد:

- مع السلامة يا حبيب العمر.

في غبش الغروب كان المشهد أمام ديوانية أحمد دشتي والمهندس خالد لا يخلو من غرابة. كان صاحب الديوانية نفسه يأخذ هيئة زراع يشتغل في حديقة الجزيرة التي تشق شارع مشرف الرئيسي، وكان يمسك بمقص كبير يشذب به الأشجار ويحرك يده ويصدر أصوات المقص بينما كانت عيناه تجولان في امتدادات الشارع وتضريعاته تراقب الحركة. كان رجل بدوي مديد القامة يسوق أمامه قطعاً صغيراً من الماعز ويتجه إلى الفناء الخلفي للديوانية. تأمله الزراع المتخفي، يعرف اسمه ولم يكن رآه من قبل، راعي الماعز هو العقيد خالد الشطي، بطل عملية نسف حاملة الجنود على الدائري الرابع أمس. تطلع إليه بإكبار، وأرسل تحية بحركة خفية من المقص، وكانت الحركة الخفية غريبة في نوعها، كانت تعني «اقطع» وفهم راعي الماعز ما تعنيه الحركة فأفلتت منه ابتسامة. قال في نفسه: مسكين جيل الآباء.. لم يمض عليه زمن طويل على توديع عصر الشقاء في الغوص والسفر والغربة وشظف الحياة حتى ابتلى بغزو بلاده!! شردت عنزة ففكر العقيد خالد أن يتركها لشأنها لأن موعد الديوانية اقترب جداً، ولكنه خشي أن تكون عين تراقبه من بعيد فتدرك أن الماعز غطاءً لحركته.. هكذا راح يعدو خلف الشاردة، وكانت حركة جرية تدل على عسكريته، فقد كانت تتقدم بالخطوة السريعة. أدرك هذا هو أيضاً فتوقف ثم استأنف العدو. في الديوانية كان المهندس خالد دشتي جالساً يتحدث مع إبراهيم المشعل همساً ثم يرتفع

الصوت وكان الهمس عن موضوعات بعيدة جداً عن الأمور التي يمكن أن يسمعاها عابر الشارع نفسه.

سأل بصوت هامس: أخبار الهويات - ثم أضاف بصوت مرتفع: يقولون عن التمور خلصت.. الناس خزنتها.

ردّ المشعل: موسم التمر الجديد مطمئن، ولا بد أسعاره تتراجع - أضاف بهمس: معي هويات جاهزة على التوزيع. هل وصلك إحصاء أسلحة الحرس الجمهوري في الأحمدية؟

- التمر عمره ما انقطع عن السوق، والمضادات انسحبت في اتجاه جليب الشيوخ.. هنا يدخل المقدم ركن محمد جاسم الرميضين، فتلتقط أذنه الكلمة، الأخيرة، ويجدها مناسبة للدخول إلى موضوع مهم:

- الجليب جاهز لاستقبال المطر.

فهم إبراهيم المشعل وخالد دشتي مرمى الكلام، وقال الأخير: هذا عشمنا يا أبو حمد، وما دامت المضادات في طريقها إلى الشمال.. هذا له معنى.. قال الرميضين: أصبحت في مسؤولية أبو شروق..

قال عبارته مبتسماً في مكر، وهو يضيف: عليه رحمة الله.

علق إبراهيم المشعل: الرحمة تجوز على الحي والميت..

أضاف خالد دشتي: كلنا أموات أولاد أموات..

وجدها فرصة ليسري عن أصحابه حتى يحضر بقية أفراد الخلية العنقودية التي حملت اسم الرميثية، فقال:

بصراحة.. كان مشهداً طريفاً.. الجماعة إياهم يجن جنونهم إذا سمعوا اسم العقيد أبو شروق. لقد تحول إلى شبح يطاردهم في كل مكان، ويظهر لهم من وراء كل حائط، وفوق البنايات، بلغ من رعبهم أن أحرقوا بيته حرقاً كاملاً، فواجهت أسرته هذا العمل بأن أعلنت وفاته، وفقدان جثته، وأقامت له ليلة عزاء تقبلت فيه المواساة.. ولعل هذا أول عزاء يقام لإنسان حي!!

كان راعي العنزات يطوف حول مربع منازل آل دشتي، ويرسل نظرات صقر تحرس وتراقب. رأى أن يوسع دائرة المراقبة قبل أن يهبط الليل فتتعدم الرؤية، فاتجه صوب الجمعية، وعند مخزن الأنابيب تخلى عن القطيع، أسلحة لهشام العبيدان، ويوسف الفلاح، وهو يهمس لهما:

- المقدم طلال المسلم في انتظاركما لإتمام عملية صباح السالم.. خليل البلوشي يعرف المطلوب.. انطلقا في حماية الرحمن.

بدأ الاجتماع في تعمد لإخفاء شكل الاجتماع. الطبيبة الشابة بنت صاحب الديوانية تحمل صينية كبيرة عليها أقذاح الشاي، وتنادي أخاها ليحملها عنها، وعلى جانب المدخل يقبع وليد الهدلق في زي خادم عماني يبذل جهداً في إعداد الجمرات للقدو، كان ينفخ لتحقيق الإشعال، ويقول دون أن يلتفت إلى من يحدثهم.

- تلقيت تليفون اليوم من وسيط عرفت إن آل رميضين زادوا في العدد طفلة جميلة، انتفض إبراهيم المشعل وقال:

- تأخر علينا أبو حمد ..

ولكن أبو حمد كان قد ملأ باب الديوانية بقامته
المديدة ..

لمن يستطع الحضور إخفاء الحفاوة به والفرح لقدمه .
وأسرع إبراهيم فقال:

- جاءت لك اليوم عروس جميلة .. ماذا تسميها؟

دارت رأس الرميضين عدة ثوان، فضحك الجلوس، وقال
بعضهم: كأنك لا تصدق أن الناس في الحروب وفي المقاومة
تنجب أطفالاً ..

وقال له صديقه خالد دشتي: هذه البنية محسوبة على
ما قبل الغزو، وابتسم الجميع في أسى، فأراد خالد أن
يلطف من جو التوتر، فقال:

- ستكون هذه الفتاة فخورة جداً بوالدها . إخوانها
وأخواتها يفخرون بأنهم أبناء المقدم البحري محمد جاسم
الرميضيين . أما هذه الصغيرة فإنها ابنة البطل .. وغداً
ستعرف أن أباه، بعدد محدود جداً من الرجال أفرغ قاعدة
الجليعة البحرية من الأسلحة والذخائر، ورتب لها مواقع

سرية في المدارس، وفي الآبار تحت حدائق البيوت، وفي
غرف تفتيش الهاتف.. ماذا أقول أيضاً؟

قاطعه إبراهيم المشعل:

- تستطيع أن تقول الكثير.. فهو المخطط والمدبر والقائد
لعملية الطريق السريع، عند مستشفى العدان، وتولى بنفسه
اصطياد ستة أوغاد من العدو عند إشارة المرور في منطقة
الفيحاء .. وغيرها ..

قال الرميضين: خلاص.. كأنكم تكتبون النعي!!

سكت الجمع واجمين..

عاد يقول: أنا أفكر في مستقبل هذه المسكينة التي ولدت
في غياب والدها، بل في غياب وطنها ..

قاطعه إبراهيم مرة أخرى:

- لا تقل هذا يا أبو محمد.. ستعود إلى أهلك، وقاعدة
الجليعة ستعود أيضاً لتقوم بواجبها في حراسة الوطن.

وأراد خالد دشتي أن يغير من اتجاه الكلام، فقال:

- هذه العروس الوليدة، بم تسميها؟

- المهم أنها ولدت قبل موعدها.. لا بد أن أم حمد عانت
في الولادة ولم يكن معها من يساعدها.. الولادة قبل تمام

مدة الحمل خطر على الأم وعلى الطفل، ولا تحدث إلا في ظروف صعبة.. الفزع والرعب مثلاً..

أصرّ خالد دشتي على المقاطعة وإعادة الكلام إلى الاتجاه الآخر:

- ماذا ستسمى البنية.. اقترح تسميتها انتصار..

- سأسميها فاطمة.. هذا الاسم عزيز عليّ جداً..

قال الجميع: مبارك اسم فطومة إن شاء الله.

وكانت هذه العبارة كأنها علامة البدء في جدول أعماق خلية الرميثية، فقال الرميضين:

- نريد أن نستأذن آل دشتي في فتح البركة واستخراج أجهزة التفجير لأن مجموعة أبو شروق تعاني نقصاً فيها.. خالد الشطي سيقوم بالتوصيل، وأنت - وأشار إلى إبراهيم المشعل - أريد هوية جديدة.. إن اللعين الذي استضافته في القاعدة، وأطعمته في بيتي يطاردني.. طبعاً يعرف ملامحي، ولكن بطاقة مصنوعة بطريقة جيدة يمكن أن توفر لي عدة أيام إضافية من الحماية.. قال المشعل: جزى الله الشدائد كل خير، عرفت بها عدوي من صديقي.. الهوية جاهزة، وها هي.. هل تتاسبك شغلة ممرض في مستشفى مكي الجمعة؟!

قال الرميضين: إذن ننصرف. المهمات واضحة، نلتقي بعد
٧٢ ساعة..

التقوا، ولم يفترقوا

تجمعت كتل من النمل الأسود حول قطعة السكر، فألقت
القبض على الجميع، كانوا عاهدوا الله على الصمت وتحمل
العذاب ولو كان تمزيق الجسد هو الثمن.. فأى ثمن، مهما
ارتفع.. هو رخيص في عشق الوطن.

بعد عدة سنوات، كان حمد يحمل رتبته العسكرية، ضابطاً
في قاعدة الجليعة البحرية، والزهور تتفتح من جديد أمام
مكتبه، وكأنها تحمل إليه شذى من أنفاس أبيه، وتتاجيه
بهمساته عندما انطلقت رصاصات الغدر من خلف تمزق
رأسه مع صاحبيه في حديقة فيلا آل دشتي نفسها حين لفظ
أنفاسه كان يرى حمد يأخذ مكانه وراية الوطن ترفرف فوق
برج القاعدة، كما كان يرى فطومة وقد كبرت وحملت كتبها
ووقفت تؤدي تحية العلم في طابور الصباح.

بصهات خالدة

العطاء، بدرجاته المختلفة، قيمة إنسانية عظيمة.. وعندما يصل العطاء الى التضحية بالروح فإنها تجسد القيم الإنسانية لأنها تعكس سمو النفس، وعلو الهمة، ولأنها تجسد الإيمان المطلق بأن الحياة الحقيقية هي الحياة الكريمة وهذه تستحق التضحية بأثمن ما يملكه الإنسان وهو النفس... لقد تجلت جميع هذه القيم الإنسانية النبيلة في ملحمة بطولية أثناء تعرض الكويت للغزو.. لقد توقف الزمن عندها ليشهد هذه الملحمة الإنسانية النادرة وليشهد عليها أيضاً ليكون بعدها توثيقاً للحدث يستهدف إعلاء شأن الوطن وشأن القيم وإعلاء لشأن الإنسان والذي هو محور كل ذلك، وتعزيزاً وتدعيماً للقيم الإنسانية النبيلة التي جسدها التضحيات العظيمة لأبناء هذا البلد الأمين فقد ارتأى المكتب أن يوثق هذه القيم ضمن سلسلة من القصص التي تعكس مآثر وتضحيات أبناء هذا البلد لتظل نافذة للأجيال القادمة يشهدون من خلالها أسمى معاني الإيثار ولينهلوا منها معاني الوفاء والعمل والحياة الكريمة..

تخليدًا لعلامة

- تكريم الشهيد عن طريق تخليد بطولاته ورعاية ذويه رعاية متميزة في الجوانب المادية والمعنوية.